اجتهادات
على حافة الانهيار

يزداد حزن محبى لبنان كل يوم، وهم يرونه على حافة الانهيار. زرتُ لبنان أكثر من أى بلد آخر، وربطتنى به علاقة وجدانية منذ الصغر، ولى فيه أصدقاء وأحباء كُثُر أشاركهم آلامهم، وأخشى معهم أن ينهار بلدهم فى مطلع المئوية الثانية فى تاريخه.

لم يُحتفل فى العام الماضى بمرور مائة عام على مولد (لبنان الكبير) تحت الانتداب الفرنسى. كان 1920 بداية تأسيس لبنان، الذى اهتدى قادته عام 1943 إلى صيغة ميثاق توافقى على أساس سياسى- طائفى سعيًا إلى التعايش بين 18 طائفة.

بدت تلك الصيغة مُبشرة فى حينها بتحول تدريجى نحو فك الارتباط بين السياسة والطوائف. لكن التحول الذى حدث كان باتجاه ارتباط أقوى بينهما، وتوافق أقل.

لم تنفع مشاعل نور كثيرة حملها مثقفون لبنانيون فى مواجهة أزمات مُعقدة فرضها تحويل لبنان إلى ساحة لصراعات إقليمية-دولية منذ أواخر الخمسينيات قبل أن يتيسر بناء أسس للتعايش بين النُخب السياسية الطائفية. لم يمض 15 عامًا على ميثاق 1943 حتى نشبت أزمة 1958 فى بداية ما أُطلق عليها حرب باردة عربية بين معسكرين استخدم كل منهما لبنان ساحة لها. وكان صعبًا تجنب تصاعد الصراع بين النُخب السياسية-الطائفية فى لبنان على خطوط الانقسام العربى فى ذلك الوقت،

ولم تنجح محاولة الرئيس فؤاد شهاب ترميم التصدعات التى أصابت صيغة التوافق تحت شعار (لا غالب ولا مغلوب)، فغادر منصبه عام 1964 مؤمنًا بأن الأسوأ قادم بسبب ما سماه (العقلية الإقطاعية). وهذا تعبير مجازى يُقصد به ذهنية النُخب السياسية الطائفية. وما أن انفجر الصراع الفلسطينى-الإسرائيلى المسلح فى جنوب لبنان فى آخر الستينيات، حتى بلغ هذا الانقسام ذروته، ومهد للحرب الأهلية عام 1975.

ورغم الآمال التى اقترنت باتفاق الطائف 1989، بقيت مُولِّدات الانقسام أقوى من محاولات احتوائه التى يبدو أنها صارت هى نفسها عصية على مصالح نُخب سياسية-طائفية يتمترس كل منها اليوم فى خندقه، وسيبقى فيه مادام قادرًا على ما يسميه اللبنانيون (شد العصب الطائفى)، أى تجييش أتباعه الذين يسيرون نحو الهلاك مغمضى الأعين مسدودى الآذان.